كيف يمكن لعلم الآثار أن يوفر مستقبلًا أكثر مرونة؟

في قمة العُلا العالمية للآثار 2023، بدأ مئات الخبراء متعددي التخصصات في استكشاف مفهوم المرونة في العالم الحديث والمتغير باستمرار، وشدّدوا على القيمة التي يمكن أن يقدمها علم الآثار في المساعدة على التوجه نحو مستقبل أكثر استدامة.

في العالم المعاصر، تقف البشرية على حافة الهاوية: التحديات التي تسببها القضايا العالمية مثل تغير المناخ تُجبر المجتمعات في جميع أنحاء العالم على إعادة النظر بشكل كبير في أساليب حياتها، وبينما تقدم الابتكارات والتقنيات الحديثة حلولًا جديدة لهذه التحديات، يمثل الماضي أيضًا مصدرًا قويًا للرؤى حول كيفية مواجهة تحديات اليوم.

لطالما كان فهم وتفسير دروس أسلافنا من إنجازاتهم وإخفاقاتهم وقيمهم وأساليب حياتهم مصدر قلق لأولئك الذين تم استيعاب أعمالهم في الماضي: لطالما دافع المؤرخون وعلماء الآثار وعلم الإنسان "الأنثروبولوجيا" عن ذاك الاهتمام البشري بحكمة الأجيال والحضارات السابقة. خلال قمة العُلا العالمية للآثار السنوية الأولى، اجتمع علماء الآثار والخبراء متعددو التخصصات في العُلا، شمال غرب المملكة العربية السعودية؛ لمناقشة مجموعة واسعة من الموضوعات المتعلقة بحاضر ومستقبل هذا المجال.

تُعرّف الأمم المتحدة المرونة بأنها القدرة على التكيف والاستجابة بكفاءة وفعالية لمجموعة واسعة من المخاطر، دون المساس بآفاق التنمية المستدامة والسلام والأمن وحقوق الإنسان والرفاهية للجميع على المدى البعيد، وفي سياق هذا الإطار، طرح المشاركون وتناولوا العديد من الأسئلة المتعلقة بموضوع المرونة: كيف يمكن لعلم الآثار أن يخدم العالم الحديث؟ كيف يمكن الاستفادة من الاستفسارات والاكتشافات الأثرية لمعالجة القضايا والتحديات المعاصرة؟ كيف يمكن لعلم الآثار تقديم قيمة مضافة للمجتمع؟

من نواحٍ عديدة، فإن التحديات التي يمكن الاستفادة من علم الآثار لمعالجتها هي التحديات نفسها التي غالبًا ما تهدد مواقع التراث الأثري والثقافي. خلال كلمتها الرئيسية في القمة، أشارت الدكتورة جيوتي هوساغراهار، نائبة مدير مركز التراث العالمي لليونسكو، إلى عدد من القضايا التي تشكّل تهديدات كبيرة للمواقع الأثرية في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك التحضر السريع والتدهور البيئي وتغير المناخ والكوارث الطبيعية والسياحة المفرطة. وأوضحت أن القمة وفّرت للقادة في هذا المجال "فرصة لتبادل ومناقشة الأمور المتعلقة بالتقدم الأثري والدور المهم الذي يمكن أن يلعبه علم الآثار ليس فقط في البحث والمعرفة، ولكن فيما يتعلق بالمجتمعات". قدّم المشاركون في القمة العديد من الطرق التي يمكن من خلالها أن توجه تساؤلات ونتائج علماء الآثار استجابات العالم الحديث للتحديات المعاصرة، وكلها أكّدت الأهمية الحيوية لحماية التراث الثقافي والحفاظ عليه في جميع أنحاء العالم.

التخطيط الحضري والممارسات المعمارية المستدامة

في العالم الحديث، غالبًا ما يكون التحضر والحفاظ على الثقافة في معركة مثيرة للجدل: فالأرض تعتبر من الموارد المحدودة. هذه المشكلة، بعيدة كل البعد عن كونها جديدة: تميل المدن إلى أن تُبنى فوق المدن، مع بناء كل حضارة على أنقاض الحضارة السابقة. ولكن في العصر الحديث، ومع النمو السكاني المتسارع الذي يؤدي إلى التوسع الحضري، فإن الحاجة إلى البناء مستمرة في النمو.

لقد اختبر البروفيسور أسد سيف من الجامعة اللبنانية هذه المعركة بين البناء والحفظ بشكل مباشر: بعد الحرب الأهلية اللبنانية، شارك بشكل كبير في جهود إعادة بناء بيروت. وأوضح: "لأكثر من 10 سنوات، كان لدينا معسكران، لعلماء الآثار الذين أرادوا الحفاظ على البيئة والمطورين الذين أرادوا التطوير". جزء من مهمته كانت تكمن في تحقيق التوازن بين هذين المعسكرين، ودمج تراث المدينة في الدعوات لإعادة التطوير للأجيال القادمة.

بالطبع، لدى علم الآثار الكثير ليقدمه للعالم الحديث أكثر من مجرد الحفاظ على الماضي، وفي حالة التخطيط الحضري والبناء، يستمد علماء الآثار العديد من الأفكار من استفساراتهم حول ممارسات البناء للحضارات السابقة.

في العُلا، على سبيل المثال، يستمد علماء الآثار وغيرهم من الخبراء متعددي التخصصات دروسًا ومعرفةً لا تصدق حول ممارسات البناء المستدامة من استفساراتهم في المدينة القديمة، ويعود أول ذكر تاريخي للمستوطنة إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وكان احتلالها عملية مستمرة حتى أوائل الثمانينيات، وهي تقدم عدسة استثنائية لكيفية تقديم الممارسات المعمارية التقليدية دروسًا مفيدة للعالم الحديث. تضم المدينة بأكملها سلسلة من الجدران والمنازل والأزقة التي تشبه خلايا النحل المبنية من الطوب الطيني، وعادة ما تكون فوق الجدران الحجرية على مستوى الطابق الأرضي. تم استخراج بعض أجزاء المجموعات الحجرية من مستويات بناء أعمق، إما من هذا المكان، أو من المواقع التراثية القريبة، فأحيانًا توجد النقوش الدادانية القديمة مصطفة بجانب بعضها البعض داخل جدران من الطوب الطيني.

كانت عملية بناء أسوار المدينة وإعادة بنائها وتحصينها عملية مستمرة، وهو تقليد استمر عبر قرون عديدة. قد يؤدي المطر وأشكال التعرية الأخرى إلى إزالة طبقات من الطوب الطيني وجرفها إلى الوادي أسفل المدينة، حيث يتجمع ويتراكم. يقوم السكان بعد ذلك بجمع المواد التي تنتج عن هذا الجريان السطحي ودمجه مع مواد أخرى، بما في ذلك سعف النخيل واللحاء، لإكمال عملية التخمير قبل العمل معًا لاستخدام هذا الطين المعاد تدويره في تحصين جدران وأسطح المدينة ومنازلها، فهذه العملية هي عرض مذهل للطبيعة الدائرية والمستدامة للعمارة الترابية.

ومدينة العُلا القديمة المليئة بالطوب الطيني ليست سوى مثال واحد على العمارة الترابية في جميع أنحاء العالم. يبحث علماء الآثار وغيرهم من الخبراء عن كثب في كيفية الاستفادة من ممارسات البناء التقليدية ومواد البناء المستدامة في البناء والتطوير الحديث. خلال حلقة نقاش في قمة العُلا العالمية للآثار، تحدثت صوفيا مالك، المهندسة والمصممة المعمارية ومؤسسة التراث غير الموروث، عن جهود مؤسستها لإعادة دمج الخيزران في ممارسات البناء الحديثة، كبديل للمواد التي يصنعها الإنسان. وأوضحت: «لا يمكن تطبيقه في جميع أنحاء العالم، ولكن عندما ينمو بشكل طبيعي في أماكن مثل بيرو والبرازيل وأي مناخ جاف أو استوائي، فهو عملي للغاية. ينمو بسرعة كبيرة، وإذا عالجته جيدًا، فقد يستمر حتى 30 أو 50 عامًا، ومن السهل جدًا تشييده، ويمكن أن يتناسب بسهولة مع الهياكل القائمة». وأوضحت أنه نظرًا لسرعة نموه ونسبة القوة إلى الوزن، فإن الخيزران أكثر ملاءمة للبيئة من معظم مواد البناء الحديثة. وعند مقارنته بمواد مثل الخرسانة، يساهم الخيزران في انخفاض نسبة الكربون بما يقارب ثمانية في المئة في جميع أنحاء العالم، حيث يلتقط ثاني أكسيد الكربون بنشاط في أقطابه.

حّدت اليونسكو العمارة الترابية كمكوّن حيوي بشكل خاص للتراث العالمي، وعنصر معرّض بشكل خاص للمخاطر. اعتبارًا من عام 2011، تضمنت أكثر من 10 في المائة من ممتلكات التراث العالمي هياكل ترابية، ومن مواقع التراث العالمي المدرجة حاليًا على أنها "في خطر"، ما يقرب من ربعها هي مواقع ترابية. وقد ركّزت اليونسكو بشكل إضافي على أهمية حماية هذه الأنواع من المواقع التراثية والحفاظ عليها، مشيرة إلى أن الدروس المستفادة منها تنطوي على إمكانات كبيرة عندما يتعلق الأمر بالتخفيف من حدة الفقر وتعزيز التنمية المستدامة.

الزراعة وإدارة المياه

في حين أن الزراعة ضرورية لبقاء وازدهار المجتمعات البشرية الحديثة، إلا أنها تشكل أيضًا تهديدات كبيرة لمواقع التراث الثقافي في جميع أنحاء العالم. يزداد الطلب على الغذاء، مع تزايد عدد السكان. في عمله كمؤسس مشارك لمشروع الآثار المهددة بالانقراض في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وجد الدكتور روبرت بيولي من جامعة أكسفورد أن "الزراعة هي أكبر تهديد للموارد الأثرية خارج المدن؛ لأن هناك المزيد من الناس الذين يحتاجون إلى المزيد من الماء والغذاء". أكد البروفيسور دومينيك باوسلاند، مدير مركز أبحاث المناظر الطبيعية في يوركشاير، هذا البيان بتجاربه ونتائجه الخاصة، مشيرًا إلى أنه في أثناء العمل في منطقة ذات أهمية أثرية واسعة، واجه أحد أكبر منتجي البطاطس التجاريين في بريطانيا العظمى، وقال: "إن نمو المحاصيل كان كارثيًا. سنفقد 15 سنتيمترًا من الآثار في حقل واحد خلال عام".

وبطبيعة الحال، فإن العديد من التهديدات التي تشكّلها الزراعة على التراث الأثري تتعلق مباشرة بالممارسات الزراعية الصناعية المعاصرة، والتي هي بعيدة البعد كله عن أنواع الزراعة التي كانت تمارسها المجتمعات والحضارات السابقة. اليوم، يتعمّق علماء الآثار في جميع أنحاء العالم في الدروس التي يمكن استخلاصها من الممارسات الزراعية القديمة.

عند النظر إلى الممارسات الزراعية في الماضي، تأتي إدارة المياه حتمًا في طليعة المناقشات، وفي الوقت الذي تعد فيه إدارة المياه من بين أهم القضايا المتعلقة بتغيّر المناخ التي تواجه معظم دول العالم، فإن التساؤلات الأثرية حول ممارسات إدارة المياه القديمة تعيد صياغة الطريقة التي ننظر بها إلى هذا الأمر في العصر الحديث.

في أثناء مناقشة التطبيقات المحتملة للحكمة القديمة لمواجهة التحديات الحديثة، شارك بيترو لوريانو - المهندس المعماري ومخطط المدن والرئيس التنفيذي لشركة IPOGEA في دراسة حالات عديدة من جميع أنحاء العالم، والتي توضح كيف لا يزال من الممكن استخدام التقنيات القديمة حتى اليوم لنقل المياه وتوصيلها دون استنزاف للموارد. وأوضح: "ماتيرا، الواقعة في جنوب إيطاليا، تبدو وكأنها مدينة من العصور الوسطى، ولكنها تحتوي على سلسلة من الكهوف التي تستخدم نظام الطاقة الحرارية الأرضية والهندسة المعمارية السلبية للري وإمدادات المياه".

في المقابل، تبنّى الأستاذ ديريك كينيت من جامعة دورهام وجهة نظر بديلة للموقف القائل بأن الحكمة القديمة لها تفوق متأصل في حل المشكلات الحديثة "إحدى المزايا التي كانت لديهم في الماضي هي انخفاض عدد السكان. مستوى الإنتاجية الذي يجب أن نحققه في الزراعة (اليوم) أعلى بكثير. لذا فإن السؤال الذي يجب أن أطرحه هو: هل يمكن [لهذه التقنيات القديمة] القيام بهذه المهمة؟". وردًا على هذا التحدي، جادل البروفيسور خوسيه ماريا مارتين سيفانتوس من مختبر الآثار البيولوجية الثقافية في جامعة غرناطة بأنه من الضروري أن يكون هناك تعريف أوسع للإنتاجية. وأوضح: "مفهوم الكفاءة الذي نستخدمه ضيق للغاية. إنه مرتبط بالإنتاجية والاستخراجية، ولكن إذا فكرنا في الكفاءة على أنها مرتبطة بالنظم الإيكولوجية متعددة الوظائف، والاستدامة والمرونة، فإن أنظمة الري التقليدية والتاريخية تصبح فعالة للغاية".

في جميع أنحاء بلدة العُلا، هناك أمثلة لا تُعد ولا تُحصى على براعة أنظمة إدارة المياه القديمة. على سبيل المثال، كان الأنباط مشهورين في جميع أنحاء العالم القديم بقدرتهم على الوصول إلى المياه وإدارتها وتوجيهها وتخزينها، حتى في المناخات القاحلة. وفي منطقة الحِجر وحدها، تمكّن علماء الآثار من تحليل العديد من المنهجيات والممارسات المختلفة التي استخدمها الأنباط. وقد اكتشفوا أكثر من 130 بئرًا محفورة في الحِجر، يبلغ قطر أكبرها حوالي سبعة أمتار وعمقها 17 متراً. قام الأنباط أيضًا بجمع مياه الأمطار من خلال سلسلة من الصهاريج والخزانات المنحوتة في نتوءات الصخور الكبيرة من الحجر الرملي، والتي تعد من المعالم المميزة للمناظر الطبيعية، ويمكن بعد ذلك استخدام هذه الصهاريج لخدمة السكان في أوقات الجفاف.

يمكن أن تكون دراسة ممارسات إدارة المياه في الواحات مثل العُلا، وتلك الموجودة في واحات مجاورة مثل تيماء وخيبر، مفيدة بشكل خاص عند محاولة استخلاص رؤى يمكن تطبيقها على التحديات الحالية المتعلقة بشُح المياه. هنا، كان الخبراء يدرسون أنظمة القنوات القديمة، والتي سمحت لسكان واحة العُلا بإدارة توزيع المياه بطريقة ذكية، مستخدمين سلسلة من القنوات المحفورة تحت الأرض الموصولة بطبقة المياه الجوفية في العمق؛ بعد ذلك تم بناء سلسلة من بوابات المياه، سواء عند النقاط التي تلتقي فيها القنوات الأرضية عند السطح أو عبر سلسلة القنوات التي تمتد على مستوى سطح الأرض، والتي يمكن فتحها أو إغلاقها وفقًا لجدول زمني محدد مسبقًا.

وحتى يومنا هذا، تعتبر هذه الأنظمة المبنية تحت الأرض بمثابة إنجاز هندسي رائع على نطاق واسع، حيث تزوّدنا بالعديد من الأفكار حول كيفية التحكم في المياه بطريقة ذكية وبشكل مستدام. وبالإضافة إلى التقنية المبتكرة المستخدمة في ذلك الوقت، تُظهر هذه الأنظمة أيضًا الدور المهم الذي يلعبه التعاون بين أفراد المجتمع في الإدارة المرنة للموارد المحدودة. ومن خلال التركيز على أولوية الوصول بشكل عادل ومنصف، يستطيع الخبراء والسلطات التغلب بسهولة أكبر على أحد التحديات الرئيسية المرتبطة بإدارة المياه في الوقت الحالي: العجز عن الوصول العادل إلى مصادر واحتياطيات المياه.

لكن الرؤى المستمدة من الإنجازات الماضية ليست هي الوحيدة ذات القيمة: فالنظر إلى سوء إدارة المجتمعات السابقة وإساءة استخدام الموارد مثل المياه يمكن أيضًا أن يمنحنا دروسًا مفيدة حول كيفية المضي قدمًا في الواحات، حيث تم استنفاد منسوب المياه بشكل كبير. يمكن لعلماء الآثار والخبراء أن يتعمقوا في دراسة العادات والممارسات التي أدت في النهاية إلى هذا الاستنزاف، وهذا يمكن أن يزوّدنا بطريقة أكثر استدامة للمضي قدمًا. في العُلا، يقوم مشروع الوكالة الفرنسية لتطوير العُلا بالتحقق من تاريخ احتياطيات المياه الجوفية المحلية من أجل الوصول إلى فهم أوضح عن كيفية تجدد هذه الاحتياطيات (أو غير المتجددة)، مما يعمق فهمنا الحالي لممارسات إدارة المياه المستدامة بشكل واقعي مع أخذ المحيط المحلي بعين الاعتبار.

الصحة العامة والممارسات الطبية

لا يمكن الإنكار أن العالم الحديث قدّم لنا مجموعة من القضايا والتحديات الحديثة المتعلقة بالصحة بشكل خاص، وقد نُغرى باللجوء إلى الطب الحديث حصريًا لمواجهة هذه التحديات. ولكن مرة أخرى، يمكن لحكمة الحضارات والمجتمعات القديمة أن تقدم رؤى مذهلة يمكن تطبيقها لمعالجة تحديات الصحة العامة المعاصرة.

ربما تكون إحدى أعظم الطرق التي يساهم بها علم الآثار في فهمنا للصحة العامة هي تحدي المفاهيم والحكمة التقليدية حول الصحة والعافية وطول عمر أسلافنا. خلال مناقشة أثيرت فيها وجهات نظر علماء الآثار حول الصحة العامة في قمة العُلا العالمية للآثار، وصف أحد العلماء عملهم في التنقيب عن مواقع العصر الحجري الحديث التي يتراوح عمرها بين 7000 و 8000 عام على طول ساحل أبوظبي كالآتي: "كانت أفكارنا السابقة حول سكان العصر الحجري الحديث أنهم عاشوا بمتوسط عمر يتراوح بين حوالي 35 أو 40 عامًا، ولكن في الصيف الماضي، قمنا بحفر موقع جديد -موقع مدفن- يعود تاريخه إلى حوالي 6000 عام قبل الميلاد، وقد صُدمنا بالعثور على مدفن لامرأة يتراوح عمرها بين 50 و 60 عامًا. معدل هذا العمر جيد جدًا لشخص يعيش في تلك الفترة الزمنية. وفيما يتعلق بالصحة العامة، يخبرنا أنه عندما كان المجتمع يعتني بشخص ما، يمكنه البقاء على قيد الحياة حتى هذا العمر".

إن فكرة وجود رعاية مجتمعية هو مؤشر مهم للصحة وطول العمر، وقد تمت ملاحظة هذا الأمر في كل من المجتمعات القديمة والحديثة حول العالم، ويمكن أن يكون لذلك آثار كبيرة على كيفية تعامل متخصصي الرعاية الصحية مع الرفاهية في المجتمعات الحديثة. خلال المناقشة نفسها، تحدّثت عالمة آثار حيوية عن عملها في موقع

دير المدينة بمصر: "نجد أحيانًا أن النتائج المتعلقة بالرعاية الصحية متناقضة تمامًا، حيث نكتشف ازدهار المجتمعات التي لا يكون أداؤها جيداً في الحقيقة، وأنا أعتقد أن الأمر لا يتعلق في الغالب بالطب، بل يتعلق برعاية المجتمع". وبناءً على هذه الملاحظة، طرحت سؤالاً مهمًا: "ما الذي لا ندمجه في الرعاية الصحية الحديثة ولدينا الكثير من الأدلة عليه في ماضينا البعيد، بحيث يجب أن نكون أفضل فيه؟"، ويمكن تطبيق ملاحظاتنا من الماضي على أزمات الصحة العامة مثل جائحة (كوفيد-19) الأخيرة. نقل أحد علماء الآثار، الذي قضى بعض الوقت في التنقيب عن مدافن الطاعون في البندقية بإيطاليا، تجاربه وملاحظاته "كان سكان البندقية يعملون بذكاء بالغ، وبسرعة كبيرة، فباعتقادهم، إذا وضعت الأشخاص المرضى في منطقة منعزلة بحيث لا يمكنهم نشر المرض إلى أشخاص آخرين، سيكون عامة الناس أقل عرضة للإصابة بالعدوى. وكانت تلك المدينة في الواقع واحدة من أولى المناطق في أوروبا التي خلت من الطاعون. إن نتائج هذه الملاحظات واضحة على الصحة العامة في الوقت الحالي". كما لاحظ المتحدث نفسه، عندما تشكّل الأمراض المعدية مثل (كوفيد-19) تهديدًا، فإن "أحد الأشياء التي يتعين عليك القيام بها على المدى القصير والفوري هو الحظر والإغلاقات، ومنع الأشخاص من الحركة، ووقف انتشار المرض بأفضل طريقة ممكنة".

كما يمكن أن تساعدنا التساؤلات عن المواضيع الأثرية على إيجاد فهم أفضل لكيفية تحقيق التوازن بين الممارسات الطبية الحديثة والتقليدية وامتلاك الحكمة. وقد قام ممثلان من متحف التاريخ الطبيعي في أبوظبي بإبراز الكيفية التي يساعد بها عملهما في علم النبات الأثري في تقديم رؤى حول قيمة الأدوية التقليدية. وأوضح أحدهم "أن المزيد من الأبحاث سيساعد الأطباء، وبالتالي من المهم جدًا امتلاك مجموعات مرجعية. وفي أبوظبي، لدينا مجمع زايد لأبحاث الأعشاب والطب التقليدي". وأضافت زميلته بما تقوم به، قائلة: "أنظر إلى النباتات المتبقية في المواقع الأثرية، وأحاول أن أفسّر ما أكله الناس وما استخدموه كدواء".

وشدّد مشارك آخر في المناقشة على الحاجة إلى المزيد من الأبحاث والاستفسارات الحديثة المتعلقة بالممارسات الطبية التقليدية "لهذا السبب لا ينبغي لنا أن ندمر غابات الأمازون المطيرة بسبب النباتات التي لم تتم دراستها أو تحديد نوعها، وبالأخص التي يمكن أن يكون لها خصائص علاجية، وتساعد في إفادة الطب الحديث". على نحو متزايد، تدفع التحديات الصحية الحديثة ممارسي الرعاية الصحية والباحثين إلى إعادة النظر في الحكمة التي تقدمها الممارسات الطبية التقليدية وعلم الأعشاب / وغالباً ما يمتلك علماء الآثار مفتاح هذه الأفكار القديمة.

تغير المناخ والتجديد الشامل للنظم الإيكولوجية العالمية

ورغم أن حجم تغير المناخ في العالم الحديث لم يسبق له مثيل، ويتطلب تحركًا وتدخلًا عالميين عاجلين، إلا أن هذه ليست المرة الوحيدة في التاريخ التي تواجه فيها المجتمعات البشرية حقائق دائمة التطور لعالم دائم التغير. إن طبيعة علم الآثار تفسح المجال للتركيز بشكل كبير على كيفية صعود وسقوط الحضارات القديمة، وكيف تحوّلت البلدات والمدن والمواقع القديمة من مناطق صاخبة إلى آثار مهجورة. في كثير من الحالات، كان تغير المناخ والكوارث الطبيعية هي الأسباب التي أدت في نهاية الأمر إلى هجر هذه المواقع. وكما أوضح الدكتور بيير زلوعة، الأستاذ بجامعة خليفة في أبوظبي "يمكنك رؤية آثار تغير المناخ في المناظر الطبيعية المغمورة بالمياه التي كانت ذات يوم على الأراضي الجافة، ولن أتفاجأ إذا وجدنا الكثير مدفونًا تحت البحر. اليوم، الكثير من العمل الذي يقوم به علماء الآثار -وعلماء الآثار البحرية على وجه الخصوص- يجب أن يواجه في نهاية المطاف احتمال أن العديد من بيئاتنا الحديثة يمكن أن تواجه يومًا ما مصيرًا مشابهًا. والنظر إلى مصائر هذه الحضارات الماضية يمكن أن يوفر أدلة حول كيفية مواجهة تغير المناخ والتدهور السريع للنظم البيئية الطبيعية في جميع أنحاء العالم".

في العقود الأخيرة، بدأ علماء الآثار في جميع أنحاء العالم بالعمل معًا من أجل التحقق من حجم وتأثير تغير المناخ الذي سببه الإنسان، وهذا يعني أن نعطي الأولوية للاستفسارات المتعلقة بالمناخ. أوضح البروفيسور باولسلاند خلال القمة: "لن نتمكن أبدًا من التنقيب في كل شيء. في نهاية الأمر، علينا أن نقرر ما الذي سيرشدنا ويعلّمنا ويسمح لنا بالقيام بعملنا بشكل أفضل. ونظرًا لخطورة أزمة تغير المناخ العالمية الحالية، قرّر العديد من علماء الآثار إعطاء الأولوية للأبحاث المتعلقة بالمناخ".

في العُلا، يعمل علماء الآثار جنبًا إلى جنب مع فرق متعددة التخصصات من علماء الأحياء، ودعاة الحفاظ على البيئة، والمؤرخين، وعلماء الأنثروبولوجيا، وأفراد المجتمع من أجل اتباع نهج جديد يهدف إلى إحياء النظام البيئي المحلي، وهو النهج الذي أصبح بسرعة نموذجًا لبقية العالم. ومن خلال مفهوم "التجديد الشامل"، تعمل مجموعة متنوعة من أصحاب المصلحة على إعادة المشهد الطبيعي إلى ذروته في الذاكرة الحية. منذ قرن مضى تقريبًا، ويهدف هذا النهج أيضًا إلى إحياء القطاع الزراعي في العُلا، مما يعني أن الخبراء يساعدون على تمكين المزارعين المحليين وأفراد المجتمع من أجل العودة إلى تبني ممارسات الزراعة التقليدية. وبفضل الموارد الحديثة والابتكارات المتقدمة، يتم إعادة تبني الممارسات الزراعية المستدامة وأنظمة إدارة المياه في جميع أنحاء الواحة.

إن فكرة التجديد الشامل في جوهرها مبنية على الاحترام العميق للمناظر الطبيعية والثقافة والتراث المحلي، وهذا التجديد يشمل ترميم مواقع التراث الأثري والحفاظ عليها. تم بناء هذا النهج على مبادئ الاقتصاد الدائري، ويأخذ بعين الاعتبار الطرق التي تتشابك بها النظم البيئية الطبيعية مع النظم البيئية البشرية، على الرغم من تعقيداتها. وفي قلب كل ذلك، يلعب علم الآثار دورًا حاسمًا في تقديم الحلول للتحديات المعاصرة، والاستفادة من رؤى الماضي لتمهيد الطريق نحو التقدم.

خلال قمة العُلا العالمية للآثار 2023، أكّد الرئيس التنفيذي لـ IPOGEA، بيترو لوريانو، على أهمية تحقيق التوازن بين الماضي والحاضر والمستقبل. وقال: "الأمر لا يتعلق بإعادة استخدام التقنية القديمة، بل يتعلق بإيجاد تقنيات جديدة غير توسعية، وذلك بفضل المعرفة القديمة". وقد تردد صدى هذه الرسالة عبر مناقشات ومحادثات لا تُعد ولا تُحصى خلال القمة، مما يؤكد أهمية إيجاد التوازن بين التراث والتقدم. فبدلًا من رؤية كل من الماضي والمستقبل على حدة، يوضح علماء الآثار كيف يمكن أن ينسجم التراث القديم مع التقدم بكل سلاسة، وكيف يمكن للتقدم أن يدفع بالتراث نحو الأمام. وفي العُلا، ينبض هذا النهج بحياة جديدة، كما يواجه بعضًا من أكبر تحديات العصر الحديث، من أجل التقدم نحو مستقبل أكثر استدامة ومرونة.